

عصر جميل

عاش جميل فى القرن الأول للهجرة. وهو قرن حافل بأحداث السياسة: تحولت فيه الدولة الإسلامية من نظام إلى نظام، ومن قطر إلى قطر، ومن سيرة إلى سيرة. فخرجت من الخلافة إلى الملك الموروث، ومن الحجاز إلى الشام، ومن بساطة الحياة الدينية إلى بذخ المعيشة الحضرية التى جمعت بين بقايا حضارة الفرس وبقايا حضارة الروم.

وليس بنا فى هذه العجالة أن نسجل حوادث العصر كله أو نتعقبها من بدايتها إلى نهايتها تعقب تفصيل أو تعقب إجمال، فكل أولئك لا يعنيننا فيما نحن فيه إلا من طرف واحد: وهو الطرف الذى يتصل بحياة شاعرنا جميل، ومن شابهه من الشعراء فى بيئته وزمانه.

وأوجز ما يقال فى تلك البيئة إنها البيئة التى تخرج أمثال جميل من شعراء البادية المحيطين بالحضارة الحجازية، والمتصلين بحواضر الإسلام فى مصر والشام.

فالعصر الذى عاش فيه جميل بالحجاز كان عصر استئناف للحياة الحجازية قبل ظهور الدعوة الإسلامية، ولكن على نحو جديد.

وكان المعول الأكبر فى الحجاز على حياة المدن التى يقصدها الناس للتجارة وقضاء المناسك السنوية. وقد طال عهد تلك المدن بالتجارة واستقبال القصاد، فاجتمع فيها الثراء بأيدى السراة وأصحاب القوافل والأموال الغادية الرائحة بين رحلة الصيف ورحلة الشتاء، واجتمع مع الثراء ما يتبعه أبداً من الترف واللهو والإباحة وإيثار الدعة والرخاء.

ثم ظهرت الدعوة الإسلامية فشغلت الناس عن ذلك كله بالجهاد بين المسلمين والمشركين، ثم علت كلمة الدين فى عهد النبى عليه السلام وفى عهد خلفائه الراشدين، فعز على أصحاب اللهو والترف أن يتمادوا فيما كانوا فيه، فاهتدى منهم من اهتدى واستتر منهم من بقى على ضلاله، ووجد أكثرهم منصرفاً له عن معيشته الأولى فى هذه المعيشة الدينية الجديدة، وفى شواغل السياسة والحرب التى كانت تزدهم بها عواصم الدولة الإسلامية، وهى يومئذ عواصم الحجاز.

ثم ارتفعت رقابة الخلفاء الراشدين عن تلك العواصم،
وتيسر للمترفين ما كان متعسرًا قبل ذلك من ضروب اللهو
والمتعة، مع اختلاف محسوس تقضى به رعاية الدين.

وانتقلت الدولة من عواصم الحجاز إلى عواصم الشام فتفرغ
أولئك المترفون لحياة الفراغ التي لا رقابة عليها، وربما
تجاوز الأمر قلة الرقابة إلى التشجيع على حياة المجون
والبطالة. لأن أصحاب الدولة الجديدة كانوا يخشون من أبناء
الرؤساء في الحجاز أن ينصرفوا عن حياة الفراغ إلى حياة الجد
والطموح، فليس في جدهم وطموحهم أمان للدولة الجديدة،
وإنما الأمان لها كل الأمان أن يلعبوا ويرتعوا ويجتمعوا على
اللغو والفضول وإيثار الدعة والرخاء.

فاستأنفت الحواضر الحجازية تاريخًا قديمًا طويلًا في
اللهو والمجون، وعادة «الظرف» المأثور في عرف أولى النعمة
أن يصبحوا ويمسوا بين المنادمة والمسامرة، وأحبها وأشيعها
حديث الغزل ووشايات الغرام.

هذه الحياة عدوى لا يسلم منها من عاش فيها ولو كان
مطبوعًا على الجد والطموح، لأنها كالجو الذي يتنفس فيه
كل متنفس يشاء أو لا يشاء، وغاية ما فيها من فروق أن

البنية السليمة تقوى على أنفاس ذلك الجو من حيث تضعف عنه البنية السقيمة. أما الهواء الذى يتنفسونه جميعاً فلا اختلاف فيه.

فمن أشجع الرجال الذين نشأوا فى تلك البيئة ولا ريب كان مصعب بن الزبير سليل الشجعان ووريثهم فى شمائل النبل والشمم والمضاء.

وكان له من الجد ما يشغله عن معيشة أهل البيئة التى نشأ فيها، وينجيه من أوهاق^(١) المتعة التى يتمرد عليها من طبع على غراره، لو كانت هناك منجاة.

كان مع عمه عبد الله صاحبى ملك ينافس ملك بنى أمية، وتولى البصرة والكوفة والعراق فضبط أمورها واستبقاها زمناً على الولاء له ولأهل بيته. ونهض عبد الملك بن مروان لقتاله بنفسه، فأنفذ إليه الجيوش وراء الجيوش، فكان يبرز لها ويضربها ويفرق شملها. ثم أوفد إليه أخاه محمد بن مروان يعرض عليه الأمان وولاية العراقيين ما دام حياً وصلة من المال تبلى ألفى درهم. فأبى مصعب إلا أن يقاتل حتى يغلب أو يموت

(١) الوهق: حبل يوضع فى عنق الدابة له أنشودة.

دون التسليم. وخذله أصحابه طمعاً في هدايا بنى أمية، فما زال في البقية الباقية من أنصاره يقاتل ويغامر حتى مات.

قيل إنَّ عبد الملك بن مروان جلس بعدها بين أصحابه يسألهم: من أشجع الناس؟ وهم يروغون في الجواب، فقال لهم: بل أشجع الناس مصعب بن الزبير، عرضت عليه الأمان والمال وولاية العراقيين وعنده عائشة بنت طلحة أجمل النساء فأبأها وآثر الموت على التسليم.

وتلك شهادة عدو لا ينفعه أن يكتمها، لأنها أشهر من أن يحجبها الكتمان.

فالحق الذى يعرفه أعداء ذلك الرجل وأصداؤه أنه شجاع وأنه نبيل، وأنه لا يقرن بالجد والطموح لذة من لذات الدنيا.

ومع هذا حسبنا أن نذكر له حكايتين اثنتين لنذكر كيف شاع الغزل وأحاديث الغزل ومواقف الغزل فى البيئة التى نشأ فيها وأحاطت به آدابها ودواعيها. فكل حديث عن الغزل والتهالك عليه مصدق إذا قوبل بهاتين الحكايتين من هذا الرجل الذى قل نظراؤه فى الجد والطموح.

إحدهما تتصل بشاعرنا جميل وتدور على بيتين قالهما فى صاحبتة بثينة، وهما:

ما أنس لا أنس منها نظرة سلفت
بالحجر يوم جلتهها أم منظور
ولا انسلابتهها خرساً جبائرهما
إلى من ساقط الأوراق مستور^(١)

قيل: إنَّ مصعباً سمع البيتين فود لو يعرف كيف جلتهها.
فأنبأوه أنَّ أمَّ منظور التي أشار إليها الشاعر لا تزال ب قيد
الحياة... فكتب في حملها إليه مكرمة. وحملت إليه،
ووصفت له تلك الجلوة فقالت: «ألبستها قلادة بلح ومخنقة
بلح واسطتها تفاحة، وضفرت شعرها وجعلت في فرقها شيئاً
من الخلق - أى الطيب - ومر بنا جميل راكباً ناقته فجعل
ينظر إليها بمؤخر عينه ويلتفت إليها حتى غاب عنها.
فقال لها مصعب: فإنى أقسم عليك ألا جلوت عائشة بنت
طلحة مثل ما جلوت بثينة. ففعلت. ثم ركب مصعب ناقته
وأقبل عليهما وجعل ينظر إلى عائشة بمؤخر عينه ويسير
حتى غاب عنها، ثم رجع!

(١) الروق: الفسطاط، والحبائر: الدمالج والأسورة، والحجر: اسم موضع.

أما الحكاية الأخرى فتدور على بيتين لتلميذ جميل -
ونعنى به كثير بن عبد الرحمن - وهما :

وما زلت من ليلى لدن طرّ شاربى
إلى اليوم أخفى حبها وأداجن
وأحمل فى ليلى لقوم ضغينة
وتحمل فى ليلى على الضغائن

وخلاصتهما أنّ مصعباً أبصر الشعبى - الراوية المحدث
المشهور - وهو فى المسجد فأمره أن يتبعه ، وتقدمه وهو
لاحق به ، حتى دخل منزلاً ثم دخل إلى حجلة فى المنزل
ووقف الشعبى ينتظر ، فإذا جارية قد خرجت تقول له : إنّ
الأمير يأمرك أن تجلس ، فجلس على وسادة وارتفع سجد
الحجلة عن مصعب بن الزبير ، ثم ارتفع السجد الآخر عن
عائشة بنت طلحة .

قال الشعبى : فلم أرَ زوجاً كان قط أجمل منهما ، ثم سألتنى
مصعب : هل تعرف هذه؟

قلت : نعم !

قال : ومن هى ؟

قلت : سيدة نساء المسلمين عائشة بنت طلحة.
قال : لا ، ولكن هذه ليلى التى يقول فيها الشاعر :
ومازلت من ليلى لدن طر شاربى ... وأنشد البيتين
ثم قال : إذا شئت فقم !

فلما كان العشى دخل الشعبى المسجد ، فإذا الأمير
جالس على سريريه فيه ، فاستدناه وسأله : هل رأيت مثل ذلك
الإنسان قط ؟

فقال الشعبى : لا والله .

قال الأمير : أفترى لم أدخلناك ؟ ... لتتحدث بما رأيت
ثم التفت إلى عبد الله بن أبى فروة فأمره أن يعطيه عشرة
آلاف درهم وثلاثين ثوباً .

قال الشعبى : فما انصرف أحد بمثل ما انصرفت به :
بعشرة آلاف درهم ، وبمثل كارة القصار^(١) ثياباً ، وبمنظرة من
عائشة بنت طلحة !

وكلام العالم المحدث هنا يتمم كلام الأمير المكافح المقدام :
كلاهما شاهد على شأن الغزل فى ذلك الجيل ، حتى ليحسب

(١) القصار : الذى يحور الثياب ، والكارة : ما يجمع فيه ثيابه .

العالم النظرة من الحسناء جائزة تقرن بعشرة آلاف درهم،
وحتى ليحكى الأمير مواقف الشعراء العشاق ويود أن يتحدث
الناس بغرامه كما يتحدثون بغرام أولئك الشعراء.

ومنى اشتغل مصعب بالغزل هذا الاشتغال فقل ما شئت
فيمن هو أفرغ للمنادمة والسمر وأحاديث الحسان والعشاق:
إنهم خلقاء ألا يفرغوا لحظة من هذه الأحاديث، ولا يزالوا
بحاجة إلى الشعراء المنشدين يرددونها نظمًا وغناءً، وهى
عندهم أحب ما يستحب فيه التريد.

ذلك شأن الحواضر الحجازية.
وليس البادية من حولها بأقل غزلاً أو نظمًا فى الغزل من
الحواضر على اختلافها، وإن تباينت الأساليب والآداب.
فلا يفوتنا أن البادية أفرغ للغزل وأرحب به مجالا من
الحاضرة، على غير ما يتبادر إلى الذهن من الخطوة الأولى.
لأن البدوى والبدوية يستعيضان بالغزل عن عشرات من
الملاهى الحضرية التى تدور عليه وتحوم حوله فى المدينة
الكبيرة.

وإن شئنا أن نعرف حاجة البدو إليه فلنذكر أنواع الفنون التي يستغرقها الحضريون في صدد العلاقات بين الرجل والمرأة ولا يتاح نظيرها لأبناء البادية.

فالمسارح، والأندية، ودور الصور المتحركة، والقصص المطبوعة، والمراقص، والمنازه التي يشترك فيها الرجال والنساء، والأغاني، والقصائد، وفروع كثيرة من التصوير والنحت والنقش والزينة - كلها معارض لتمثيل الغزل بأنواعه في الحاضرة، ولا يقابلها في البادية إلا غزل الشاعر بالحسناء، وما ينسج حوله من الأحاديث والدسائس والوشايات.

فالغزل وحده عند البدوى عوض عن هذه الأنواع المتنوعة من أحاديث الرجل والمرأة في المدينة العامرة، وهذا مع كثرة الشواغل في المدن وقلة الشواغل في البوادي، إلا ما كان من رعى أو سقى يقربان بين الرجل والمرأة ويلجئانهما إلى الغزل ولا يشغلانهما عنه، فضلا عن معيشة الفطرة بين الأحياء التي لا تنقطع فيها صلات الذكور والإناث، وليس الإنسان بدعاً بينها في هذه الغريزة الفطرية.

فالبادية مهْدُ الغزل قبل الحاضرة.

وأيسر للمرء أن يتصور مدينة بغير شعر غزلى من أن يتصور بادية لا تنظم هذا الشعر فى كل حين.
إلا أنَّ البادية تتقيد ببعض القيود التى تستدعيها معيشة البدو ولا تستدعيها معيشة الحضريين.

لأن «المنعة» ضرورة من ضرورات الحياة بين أهل البادية، ولا مناص لهم من الاشتهار بمناعة الحوزة بين الأعداء والنظراء، وإلا طمع فيهم كل طامع واستباحهم كل مستبيح.
وأول حوزة يحميها الرجل هى المرأة. فمن شرف «البدوى» أن تكون فتاته منيعة الحمى يتقاصر عنها لسان المتغزل كما يتقاصر عنها سيف المغير. وهذا هو القيد الذى يختلف به أهل البادية من أهل المدينة ولكنه قيد «سيئ الحظ» كجميع القيود التى تحيط بالغرائز وتحبس من ناحية ما يطلقه الطبع من ناحية أخرى.

فمنذ القدم والقيود التى تفرضها العادات تتوالى على الرجال والنساء بما يطاق وما لا يطاق، ومنذ القدم والعرف مضطر إلى كثير من الإغضاء والتعامى عن تلك القيود. فهى موجودة ومفتاحها موجود، ولا يزال القيد منها مقروناً بمفتاح.

فإذا حجرت العادات من ناحية جاءت الفنون فتسمحت من ناحية أخرى. وقد يغض الرجل المتدين بصره إذا مرت به حسناء يخشى فتنتها، ولكنه يسمع بيتاً فى الغزل وهو غاض عينيه فلا يغلق دونه أذنيه.

وقوانين البادية كجميع القوانين عرضة للتشديد والتخفيف وللرعاية والإهمال، وللمحابة والاحتياى.

فقد يطول عهد الرخاء بالقبيلة فتهدأ فيها سورة القتال وتضعف المغالاة بالمناعة وما يتبعها من الغيرة والسطوة، وقد يطول بها عهد الفاقة فيترخص أبناؤها وبناتها فى الأمور التى كانوا يتشددون فيها ويستكينون للسبة التى كانوا يتدمرون منها، وقد تجاوز قبيلة قبيلة أقوى منها فتنزل على حكمها وتصبر على نزوات أهلها، وقد تجاوز الحاضرة فتجرى على سنة الحضريين فى الرفق والدمائة، وتنزل شيئاً فشيئاً عن الجفوة والخشونة.

وكل أولئك كان يحدث فى القبائل الحجازية على عهد جميل. كان منها من استغنى عن القتال بعد أن تكلفت الدولة القائمة بصيانة الحقوق ومنع العدوان وجزاء المعتدين.

وكان منها من طال فيهم الغنى كآل جميل ، ومنها من قل غناهم وجاوروا من هم أقوى منهم كآل بثينة ، وكانوا جميعاً يختلفون إلى الحواضر ويتشبهون بظرفائها وينكرون الخشونة على البادية وأهلها.

فاتسع ميدان الغزل حاضراً وبادياً ، وظهر شعراء النسب بنوعيه ، تغنياً بامرأة واحدة كما يغلب على شعراء البادية ، أو تغنياً بالحسن جميعاً كما يغلب على شعراء الحاضرة ، وتهاياً العصر لطائفة من شعراء المدرستين على رأسهم عمر بن أبي ربيعة يتغنى بحسان مكة وكل حسناء تقبل عليها ، وجميل بن معمر يتغنى بصاحبته بثينة ويعيش ويقضى نحبه على هواها.

وما فتئت البادية العربية منذ القدم ميداناً فسيحاً للقوالين والرواة ، لأنهم سلاح من أسلحتها ومصلحة من مصالحها وثقافة أدبية تعدل عندها ثقافة الفنون والآداب والتواريخ في أمم الحضارة.

ولها معهم عرف ذو وجهين يجرى على الرياء والمداراة ، ولا سيما في الغزل والفخر الحماسي . وهما قوام الشعر البدوي أو قوام كل شعر على الفطرة عذبت بحفظه الجماعات الأولى

فهي تحرم الغزل ببنائتها ولكنها تحفظ للأعقاب منظومات شعرائها، ولو كان عرفها في هذا الباب ذا وجه واحد لما بقيت لنا قصيدة من قصائد العشاق ولا خبر من أخبارهم، ولا قصة من قصص الشعراء الواصفين والحسان الموصوفات. ولكنهم كما رأيناهم قد عنوا بكل كلمة قالها شاعر في حسناء وبكل مساجلة بين عاشقين كأنها من وثائق التاريخ التي لا تنسى، وما ذاك لأنهم يحبون الرياء أو يقصرون في كراهة المحظورات، فإنهم في الواقع يبلغون من كراهتها أقصى ما في وسعهم أن يبلغوه، ولكنهم يفعلون ذلك لأن بواعث الحب في الفطرة الإنسانية أقوى من أن يكبحها العرف أو يقضى فيها بقضاء واحد، فلا بد من التجوز والإغضاء، أو لا بد هنا من عرف ذي وجهين.

أما الفخر الحماسي فموضع الرياء فيه مع شعرائهم أنهم يزدرون الشاعر ويفخرون بكلامه، وربما ارتفعت قبيلة بكلام شاعر وهو بينهم في مكان غير رفيع، وربما كان تحريمهم زواج الفتاة بمن ينظم فيها الغزل ضرباً من ازدراء الشعراء كما كان ضرباً من حماية العرض ومنع الذمار. إلا أنهم في الفخر كانوا أصرح منهم في الغزل والنسيب. وربما اجتمعت القبائل

علانية لسماع شاعرين يتراجزان ويتناجزان، ويذكران الأعراق والأوطان، ولم تأذن بإعلان الغزل على هذا النحو ولا بتناقله بينهم إلا من وراء أذن السامع وعين المشيح.

وقد كان لجميل حظه الوافى من الحالين فى الغزل والفخر على السواء، فسارت الركبان بأحاديث هواه و«تجمعت الأعاريب أرسالا» لسماع أراجيزه فى الفخر بذويه، وخرج من حلبة الفن بنصبيين متناقضين: فأما شخصه فقد جنى عليه شعره وحال بينه غزله وبين صاحبتة على ما كان له بين قومه من مكانة وثناء، وأما شعره فقد ظفر بكل عناية فى وسع قبيلة بادية، ولا سيما الغزل الذى منعه وأوشكوا من أجله أن يقتلوه.

ومهما يكن من عرف العصر والقبيلة فقد كان عرفاً يسمح بغزله ويستدعيه ويستبقيه، أو كان عرفاً صالحاً لتشجيع العاشقين، وإن لم يكن صالحاً بينهما لوثام الزوجين. وتاريخ الآداب لا يجمع عقود الزواج ولا دعوات الزفاف، ولكنه يجمع الشعر الذى قاله العاشق ولو جنى عليه؛ وهكذا صنع بشعر جميل.